الفصل السابع

ولايات غينيا

ما زال تاريخ غينيا الأول غامضًا ولم يتحدث عنه المؤرخون العرب الذين كتبوا عن السودان بين القرنين الثاني والخامس عشر، وبعد ذلك بدأ المؤرخون الأوروبيون يكتبون ولكنهم لم يتوغلوا في تاريخ أفريقيا إلا في القرن التاسع عشر.

وعلى ذلك، فكل المعلومات المسجلة عن الأحداث في الداخل لا تعدو إلا أن تكون روايات سماعية تناقلتها الأجيال ويعتمد المؤرخون في تأييد تلك الروايات على التقاليد والعادات المتبعة بين الأهالي.

ومن الواضح أن غينيا لم تبدأ في الدخول في تشكيلات نظامية على نمط ولايات السودان إلا في القرن الثالث عشر. إن ولايات غينيا غربي نهر فولتا تتشابه مع الممالك السودانية كما تتشابه مع غانا ومالي. أما الولايات التي تقع شرقي نهر فولتا فتتشابه مع كانم وهوسا، وكما تروي لنا الأساطير عن أصل ولايات غينيا الشرقية والتشابه الملحوظ في نظامها السياسي تشير إلى أن نظام الممالك السودانية الذي انتشر جنوبًا وغربًا يرجع في أصله إلى نظام كانم القديم.

وإن المنطق ليدل على أن مهارة شعوب السودان في الزراعة، إلى جانب النجاح الذي أحرزوه في إقامة دولة مستقرة تحكم مساحة شاسعة

تقوم بالتجارة العريضة، كل ذلك نتج عنه ازدياد مضطرد في التعداد؛ ما أدى إلى الزحف نحو الغابات واستغلالها وساعد على ذلك استجلاب نباتات جديدة تصلح للطعام من جنوب شرقي آسيا.

إن كثيرًا من شعوب الولايات التي عرفت مثل (آكان) و(يوروبا) والذين يعتبرون الآن سكان غابات نشأوا أصلًا في شمالي الغابات، وأولى ولايات آكان كانت (بونو) و(باندا) أقامتا في شمالي ساحل الذهب خلال القرن الثالث عشر. وأول امتداد لولاية آكان نحو الجنوب تجنبت فيه الغابات قدر المستطاع، فاتجهت شرقًا نحو وادي نهر فولتا الذي قادهم لأضيق منطقة غابات إلى الساحل حيث الخضرة ولم تقتحم الغابات نفسها حتى القرن الخامس عشر. وكانت آيف المدينة الفاصلة بين الذين أقاموا ولايات يوروبا وأسرة (بنين) التاريخية. وفي القرن السابع عشر وصلت يوروبا إلى الذروة السياسية واعتمدت على الجنوب– مثلها في ذلك مثل ولايات السودان– التي تعتبر رمزًا لقوة الحاكم وإن كانت لا تصلح لحرب الغابات.

وهذا دليل على أن منشأ الولايات لابد أن يكون من السودان حيث اعتمدت على الجنوب من قبل كما أن تقاليد بنين المتوارثة تدل على أن الأسرة الحاكمة كانت من بين مهاجري آيف منذ ثلاثمائة سنة قبل وصول البرتغاليين ويحتمل أن يكون ذلك في بدء القرن الثالث عشر.

ولشعب غينيا في ذلك الوقت نظام اجتماعي خاص، فيعيش الناس في منشآت جماعية حول بيوت ملوكهم وبيوت رؤسائهم وتختلف حجم

المنشأة في القرية عنها في المدينة، حيث يعيش كبراء القوم في أجنحة خاصة حول مقر الملك. كما كان يخصص جزءًا للغرباء ينزلون فيه.

وفي الولايات الشرقية وبخاصة في يوروبا، كانت صورة الحياة فيها تقترب من الحياة في ولايات (هوسا) في الشمال وكانت نواة الولاية عبارة عن مدينة يحيطها حد يضم داخله مساحة من الأرض تكفي لإقامة الأهالي وأحيانًا تكفي لإطعامهم بما تنتجه زراعتها في حالة الطوارئ، وأغلب مدن غينيا بقيت بعيدة عن الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر، فيما عدا (بنين)، فإن زوارها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر قرروا اعتبارها لا مدينة كبيرة فحسب، بل تضارع معظم مدن أوروبا في ذلك الوقت وهذا ما قرره المؤرخ الهولندي سنة ١٦٠٢.

(إن المدينة تبدو كبيرة وعندما تدخلها تسير في طريق عريض– ليس مرصوفًا– يبلغ اتساعه سبعة أو ثمانية أضعاف شارع ورمز في أمستردام. هذا الشارع يمتد في استقامة دون أي انحناءة وطول هذا الشارع ميل على جانبيه الضواحي، ودخلت على صهوة جواد من بوابة فرأيت سورًا عاليًا وخندقًا عريضًا خارجه وعندما تكون في هذا الشارع ترى شوارع أخرى واسعة مستقيمة وتقوم المنازل في هذه المدينة على نظام جميل مثل منازل هولندا؛ الغرف مربعة وسقفها مفتوح في المنتصف ليسمح للهواء والضوء بالنفاذ).

وقبل ظهور الأوروبيين كانت هناك شبكة طريق للتجارة تربط المدن والقرى وجميع غربي أفريقيا تقريبًا بين الصحراء الكبرى والساحل وكانت

تقام الأسواق المحلية بانتظام ولكل سوق يوم خاص حتى لا تدخل الأسواق في منافسة فيما بينها، كما كانت البضائع في تلك الأسواق لا تخرج عن الأطعمة المتبادلة.

أما تجار (ماندي) و(هوسا) و(يوروبا)، فإنهم قاموا بالتجارة الدولية وهذه التجارة تتعلق وجودًا وعدمًا بوجود الدولة أو زوالها، وترك التجار المنطقة لوعورتها وأقام فيها عدد قليل من السكان هرعوا إليها من المدينة. ولذا فقد بقيت تلك المنطقة غير آهلة بالسكان وهي المعروفة الآن بليبيريا. ولم تكن التجارة الخارجية بالأمر الضروري في معظم الأحيان، بل كانت كمالية أكثر منها ضرورية. حيث كانت الجماعات تكفي نفسها سواء في الزراعة أو المنتجات الأخرى. فضلًا عن أن تكاليف النقل كانت باهظة، ففي الغابات كانت وسيلة النقل هو الحمل على الرأس؛ إذ أن النقل على الدواب كان متعذرًا بسبب الحاجة إلى العلف ووجود ذباب التسي تسي. لذلك كانت التجارة الخارجية مقصورة على الملوك ورجال البلاط الذين يستطيعون تحمل النفقات والذين لديهم من الأتباع ما ينتجون طرفًا من التجارة.

ثم قام نوع جديد من التجارة وهو تجارة المواشي والخيول من السودان إلى غينيا. أما غينيا، فإنها كانت تصدر التبغ وجوز الكولا والعاج، وإن كان لم يصبح مهمًا في التجارة إلا بعد تصديره إلى أوروبا حتى أن الجزء الساحلي الذي يقع غربي ساحل الذهب سُمي بساحل العاج، أما الأقمشة فكانت غينيا تستورد معظمها من السودان حيث كانت تنسج هناك. هكذا لم يصبح التعامل في الرقيق تجارة إلا فيما بعد وإن كان من المسلم به

أن الحمالين كانوا من العبيد الذين كانوا يستجلبون من جنوبي السودان. ونشطت تجارة الرقيق على الساحل عندما ازداد الطلب على الرقيق من أوروبا في القرن السادس عشر وكانت كل قرية تقريبًا– من قرى غينيا– متصلة بتجارة معينة أو أكثر مع الحضارة الإسلامية في السودان وشمالي أفريقيا، وعندما وصل الأوروبيون إلى ساحل غينيا عن طريق البحر وجدوا الميدان خصبًا لنشاطهم التجاري.